

## ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما دراسة في التعليل الدلالي

أ.م.د. عبدالحسين موسى  
الساعدي (\*)

ما زال تراثنا العربي الخالد زاهر بالظواهر اللغوية التي تداولها اللسان العربي قديماً وحديثاً ، وانتشرت في ميادينه المختلفة على مستوى النصوص الأدبية من الشعر والنثر ، وعلى مستوى النصوص الدينية التي تشمل القرآن والحديث النبوي الشريف ، ومن هذه الظواهر « ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما » وهي ظاهرة ملموسة في سجل حضارتنا سطع ضوءها في الشعر العربي وفي القرآن الكريم ، وفي حدود اطلاعي لم أعتز على كتاب أو بحثٍ اختص في الكتابة عن هذه الظاهرة وأبعادها وتعليلاتها الدلالية ، وهذا ما شجعني في أن أبرز هذا اللون من الاستعمال التركيبي في اللسان العربي ، فوجدت له مادة في الشعر والقرآن .

(\*) جامعة بغداد – كلية الآداب

أما في ميدان الخطاب القرآني فقد تناولها المفسرون في التحليل والتوجيه والتعليل ، وجاء الحديث عنها أكثر مما هي عليه في الشعر العربي وارتأيت أن أبحث الظاهرة في مبحثين :  
الأول : على مستوى الاستعمال القرآني .  
الثاني : على مستوى الاستعمال الشعري .  
المبحث الأول : ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما في الاستعمال القرآني :

سبق لي أن كتبتُ في عائديه الضمائر القرآنية وفي التشابه اللفظي الشكلي في داخل السياق المنفرد بفاصلة ، وأثناء بحثي وقع بصري على وجود استعمال قرآني يذكر اسمين ويعقبهما بالحديث عن أحدهما ، وقد تكرر هذا الأسلوب أكثر من مرّة فاستوقفني هذا اللون من الاستعمال ، وبعد أن أنجزت عملي عدتُ إلى هذه الظاهرة وتتبعتها في الخطاب القرآني فوجدتها في ثمانية مواضع متفرقة ، جمعتها وبيّنت آراء علماء التفسير والنحو في توجيهها الدلالي ، وبعد ذلك حاولتُ تأكيد هذا الاستعمال من ديوان العرب ، فوجدت في بعض النصوص الشعرية ما يؤكد وجود هذه الظاهرة في اللسان العربي .أما المواضع القرآنية التي وردت فيها فهي :

الموضع الأول : في قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (١) .

الاستعانة : « طلب العون » (٢) .

الصبر : « حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع » (٣) .

الصلاة : في اللغة هي الدعاء ، والتبريك ، والتمجيد ، وفي الاصطلاح : هي العبادة المخصوصة (٤) .

(١) سورة البقرة : ٤٥ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٩٨ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٧٤ .

(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٩٠ و ٤٩١ .

المتأمل في النص القرآني من حقّه أن يسأل عن علّة التعبير القرآني في قوله « وإِنَّهَا » ولم يقل « وإِنَّهُمَا » بعد ذكر الصبر والصلاة . هذه العلّة وغيرها من علل التعبير كانت محفزاً لدقائق العقول ، واستنطاقاً للمجهول ، ورغبة في البحث عن معرفة بنية المجهول ، ففاضت قرائح المفسرين بما عندهم ولم يبخلوا علينا بما يعرفون ، فجاءنا منهم القليل والكثير والصريح والتلميح في دقائق هذه الأمور ، وإليكم قبسٌ من عطائهم في هذه الآية المباركة .

ظاهر كلام الزجاج (ت: ٣١٢هـ) أنّ الضمير يعود على الصلاة . الزجاج في هذا المورد حدد مرجعية الضمير فقط ، ولم يتحدث عن علّة التعبير التي أفردت اسماً واحداً دون الآخر (٥) .

وحينما تحدث النحاس (ت: ٣٣٨هـ) عن الآية قال : « وفي غير القرآن يجوز وإنّه ويجوز وإِنَّهَا » (٦) . ولم يفصل في علل التعبير .

وذكر الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ثلاثة أقوال في لفظ « كبيرة » :

الأول : الصلاة ، قال : « وإنّ الصلاة لثقيلة إلا على المؤمنين ، لعود الكناية إلى مؤنث اللفظ .

الثاني : الكناية تعود إلى الصلاة ؛ لأنّها أقرب مذكور ، ومع ذلك فالله أراد الصبر والصلاة .

الثالث : الكناية تعود إلى محذوف ، والتقدير : « وإنّ إجابة محمد (ص) وآله لشديدة إلا على الخاشعين » (٧) .

ولي على أقواله ملحوظتان :

الأولى : أنّه فسّر لفظ « الخاشعين » بلفظ المؤمنين وهذا بجانب للصواب ؛ لأنّ الخشوع مرحلة تكاملية أعلى من مرحلة الإيمان قد يصل

(٥) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، ١ : ٦٠ .

(٦) إعراب القرآن : ١١٩ .

(٧) النكت والعيون ، ١ : ١١٦ .

إليها المؤمن وقد لا يصل ، ودليلي في أنها سمة زائدة عن الإيمان قوله تعالى : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } (٨) .

فذكر المؤمنين وذكر الخاشعين في السياق نفسه ، وهذا دليل على المغايرة .

**الثانية :** أن تقدير محذوف في التركيب فيه تكلف بعيد والسياق وقرائنه اللفظية المتقدمة والمتأخرة لا تساعد على هذا التقدير .

وعلى الواحدي سبب الأفراد بعد ذكر الصبر والصلاة بقوله : «لأنه كنى عن الأغلب والأفضل والأهم ، وهو الصلاة» (٩) .

ويرى الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ) أن الآية فيها تقدير ، والتقدير : واستعينوا بالصبر وإنه كبير ، واستعينوا بالصلاة وإنها كبيرة ، فحذف أحدهما اختصاراً (١٠) .

أبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧هـ) بعد أن حدد الصلاة مرجعاً لضمير الهاء قال : «وقال : وإنها ولم يقل : وإنهما ، وإن تقدم ذكر الصبر والصلاة ؛ لأن العرب (ربما) تذكر اسمين وتكني عن أحدهما» (١١) . وبعد أن ذكر رأيه في توجيه النص قال «وقيل: الهاء في «وإنها» تعود على الاستعانة لدلالة «استعينوا» عليها ؛ لأن ذكر الفعل ذكر المصدر» (١٢) .

ما ذهب إليه أبو البركات أقرب في الاستحسان ؛ لأن ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما مألوف عند العرب في شعرهم ويعد من أساليب فصاحتهم ولعل استعمال هذه الظاهرة في النص القرآني جاءت تماشياً مع لسانهم وسليقتهم .

يرى الزمخشري والنسفي والبيضاوي أن الضمير في «وإنها» يعود للصلاة أو للاستعانة (١٣) .

وأجاز الزمخشري أن يكون الضمير عائداً لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها (١٤) .

أما تخصيصها بالصلاة ورد الضمير إليها فلعظم شأنها واستجماعها ضرورياً من الصبر (١٥) .

وذكر الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) أن الضمير في «وإنها» عائداً على الصلاة عند أكثر المفسرين ، وسبب هذا التخصيص بالصلاة لقربها وأهميتها (١٦) . وأجاز أن يكون اللفظ واحداً والمراد به اثنان واستدل بآيات قرآنية وآيات شعرية (١٧) .

**ومن المفسرين من أعاد الضمير على ثلاثة مراجع هي :**

- ١- العبادة التي تضمنها الصبر والصلاة .
- ٢- أو على الاستعانة .
- ٣- أو على الصلاة (١٨) .

وقد جمع أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) أقوال المفسرين السابقين له بعد أن أدلى برأيه في عود الضمير ، بسبعة أقوال يتصدرها رأيه الذي يقول فيه : «الضمير عائداً على الصلاة ، هذا ظاهر الكلام ، وهو القاعدة في علم العربية أن ضمير

(١٣) ينظر: الكشاف: ٦٩ ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٥٠ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٧٦ .

(١٤) ينظر: الكشاف: ٦٩

(١٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٧٦ .

(١٦) ينظر : التبيان في تفسير القرآن ، ١ : ٢٦٧ .

(١٧) ينظر : التبيان في تفسير القرآن ، ١ : ٢٦٧ .

(١٨) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل ، ١ : ٢١٤ .

(٨) الأحزاب : ٣٥ .

(٩) البسيط ، ٢ : ٤٥٢ و ٤٥٣ .

(١٠) ينظر : معالم التنزيل : ٣٠ .

(١١) البيان في غريب إعراب القرآن ، ١ : ٧٩ .

(١٢) البيان في غريب إعراب القرآن ، ١ : ٧٩ .

الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل<sup>(١٩)</sup>.  
وبعد أن ذكر الآراء جميعها قال : « هذه سبعة  
أقوال فيما يعود الضمير عليه ، وأظهرها ما بدأنا  
به أولاً »<sup>(٢٠)</sup>.

وكرر السمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) الأقوال التي  
أوردها أبو حيان الأندلسي ، وأضاف إليها الرأي  
الذي يقول : « وقيل : عائد على الصبر والصلاة وإن  
كانتا بلفظ المفرد »<sup>(٢١)</sup>.

وتابع عبدالرحمن بن محمد الثعالبي (ت:  
٨٧٦هـ) ما قاله أبو حيان الأندلسي في توجيه  
عائدية الضمير وأنه لا يعود على غير الأقرب إلا  
بدليل<sup>(٢٢)</sup>. وتابع محمد المشهدي القائلين بهذا  
الرأي<sup>(٢٣)</sup>.

الذي نخلص إليه أن الضمير يعود على الصلاة  
استناداً على مبدأ المطابقة والقرب والأهمية.

**الموضع الثاني :** في قوله تعالى { فَانظُرْ إِلَى  
طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ }<sup>(٢٤)</sup>.

في هذا النص القرآني ذُكر الطعام والشراب  
وهما اسمان معرفان وكنى عن أحدهما بأنه لم  
يتسنه ، واختلفت أقوال المفسرين في الاسم الذي لم  
يتسنه أهو الطعام أم الشراب ؟

ويمكن ذكر أبرز ما قيل في توجيه الضمير من آراء  
في الآتي :

**أولاً :** وقف الواحدي على هذا النص محللاً  
ومعللاً قال : « فإن قيل ذكر شيئين وأخبر عن  
أحدهما أنه لم يتغير ؟ قيل : التغير راجع إلى  
أقرب اللفظين ، وهو الشراب ، واكتفى بالخبر

عن أحدهما عن الخبر عن الثاني ؛ لأنه في معنى  
الثاني »<sup>(٢٥)</sup> .

وما ذكره الحسين بن مسعود قريب من رأي  
الواحدي ، قال : « ولم يثن الضمير مع أنه أخبر  
عن شيئين ردّاً للمتغير إلى أقرب اللفظين به ، وهو  
الشراب ، واكتفى بذكر أحد المذكورين ؛ لأنه في  
معنى الآخر »<sup>(٢٦)</sup> .

علل محمد بن الحسن الطوسي أفراد الضمير  
على واحد دون الآخر ؛ لأن صاحب النص أراد  
جنس الطعام والشراب ، قال الطوسي : « إنما  
قال (لم يتسنه) على الواحد ؛ لأنه أراد جنس  
الطعام والشراب ، أي : انظر إلى ما تركته إنه لم  
يتسنه »<sup>(٢٧)</sup> . وذكر عن غيره أنه أريد به الشراب ؛  
لأنه أقرب مذكور .

وقد ذكر العكبري احتمالات عدة قيلت في توجيه  
هذا النص القرآني على وفق الآتي :

- قيل يُحتمل أن يكون ضمير الطعام والشراب  
لاحتياج كل واحد منهما إلى الآخر بمنزلة شيء  
واحد ؛ فلذلك أفرد الضمير في الفعل .

- يُحتمل أن يكون جعل الضمير لذلك ، وذلك  
يُكنى به عن الواحد والأثنين والجمع بلفظ واحد .  
- ويحتمل أن يكون الضمير للشراب ؛ لأنه أقرب  
إليه وإذا لم يتغير الشراب مع سرعة التغيير إليه  
فإن عدم تغير الطعام أولى<sup>(٢٨)</sup> .

- ويجوز أن يكون أفرد في موضع التنثية ، كما  
قال الشاعر :

فكأن في العينين حبّ قرنفلٍ ... ..  
ويرى أبو حيان الأندلسي أن الضمير في يتسنه

مفرد ، فيحتمل أن يكون عائداً على الشراب

(٢٥) البسيط ، ٤ : ٣٩٢ .

(٢٦) معالم التنزيل : ١٦٣ .

(٢٧) مجمع البيان ، ٢ : ١٧٣ .

(٢٨) ينظر التبيان في إعراب القرآن ، ١ : ٢٠٩ و ٢١٠ .

(١٩) البحر المحيط ، ١ : ٣٤١ .

(٢٠) البحر المحيط ، ١ : ٣٤١ .

(٢١) الدرّ المصون ، ١ : ٣٣٠ و ٣٣١ .

(٢٢) ينظر : الجواهر الحسان ، ١ : ٢٣٢ .

(٢٣) كنز الدقائق ، ١ : ٣٧٥ .

(٢٤) سورة البقرة : ٢٥٩ .

خاصّة، ويكون قد حُذِفَ مثلُ هذه الجملة الحالية من الطعام لدلالة ما بعده عليه .

واحتتمل أن يكون الطعام والشراب أُفِرِدَ ضميرهما لكونهما متلازمين ، فعوملا معاملة المفرد ، أو لكونهما في معنى الغذاء ، فكأنه قيل: وانظر إلى غذائك لم يتسنّه<sup>(٢٩)</sup>، واستشهد بقول الشاعر السابق الذكر في المتلازمين :

فكأن في العينين حبّ قرنفلٍ

ولم يحيد المفسرون بعد القرن التاسع الهجري عن هذه التوجيهات ، فقد ذكر المشهدي في تفسيره : «إنما أفرد الضمير ؛ لأنّ الطعام والشراب كالجنس الواحد»<sup>(٣٠)</sup>.

**الموضع الثالث :** { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }<sup>(٣١)</sup> .  
الخطيئة: تقع على الصغيرة : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }<sup>(٣٢)</sup>. وتقع على الكبيرة: { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }<sup>(٣٣)</sup>.  
والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض ، والخطيئة قد تكون من غير تعمد<sup>(٣٤)</sup>.

**الإثم :** الذنب الذي يستحق العقوبة عليه ، ولا يصح أن يوصف به إلا المحرّم ، سواء أريد به العقاب أو ما يستحق به من الذنوب ، فالإثم يختص بما يكون عمداً<sup>(٣٥)</sup>.

**البهتان :** « الكذب الذي يُبْهت سامعه لفظاعته »<sup>(٣٦)</sup>. و« هو أفحش الكذب ؛ لأنه إذا كان

عن قصد يكون إفكاً »<sup>(٣٧)</sup>.

ما أثار أذهان المفسرين توحيد الضمير بعد ذكر الاسمين بقوله « به » ولم يقل « بهما » وهذا التعبير أدّى إلى تعدد التوجيهات التفسيرية للنص ، وإلى القارئ التفصيل :

ذكر الفرّاء هذه المسألة قائلاً : « يُقال : كيف قال « به » وقد ذكر الخطيئة والإثم ؟ وذلك جائز أن يُكنى عن الفعلين وأحدهما مؤنث بالتذكير والتوحيد ، ولو كُنْزَ لجاز الكناية عنه بالتوحيد؛ لأنّ الأفاعيل يقع عليها فعلٌ واحدٌ ، فلذلك جاز. فإن شئتَ ضممتَ الخطيئةَ والإثمَ فجعلته كالواحد . وإن شئتَ جعلتَ الهاءَ للإثمَ خاصّةً »<sup>(٣٨)</sup>.

ويرى النحاس أنه عطف عليه ، وأنّ في الكلام حذف من الأوّل على مذهب سيبويه<sup>(٣٩)</sup>.

ووقف الطوسي على هذا النص القرآني وذكر آراء غيره من العلماء ولم يرجح رأياً في المسألة<sup>(٤٠)</sup>.  
ووجه المسألة أبو البركات الأنباري بقوله : « لم يقل بهما ؛ لأنّ معنى قوله : ومن يكسب خطيئة أو أثماً ، ومن يكسب أحد هذين الشئين ثم يرم به ، لأنّ « أو » لأحد الشئين ولهذا تقول : زيدٌ أو عمرو قام ، ولا يُقال : زيدٌ أو عمرو قاما »<sup>(٤١)</sup>.

علل الحسين بن مسعود البغوي هذه الظاهرة بقوله : « ردّ الكناية إلى الإثم وجعل الخطيئة والإثم كالشيء الواحد »<sup>(٤٢)</sup>.

وحسم العكبري رأيه في المسألة بقوله : « الهاء تعود على الإثم ، وفي عودها عليه دليل على أنّ الخطيئة في حكم الإثم »<sup>(٤٣)</sup>. وذكر أقوال المفسرين

(٢٩) ينظر التبيان في إعراب القرآن ، ١ : ٢٠٩ و ٢١٠ .

(٣٠) كنز الدقائق ، ٢ : ٤٤٦ .

(٣١) سورة النساء : ١١٢ .

(٣٢) سورة الشعراء : ٨٢ .

(٣٣) سورة البقرة : ٨١ .

(٣٤) ينظر : الكليات للكفوي : ٤٢٤ و ٤٢٥ .

(٣٥) ينظر : الكليات : ٤٠ .

(٣٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ١٤٨ .

(٣٧) الكليات : ١٥٤ .

(٣٨) معاني القرآن ، ١ : ٢٨٦ .

(٣٩) ينظر : إعراب القرآن : ٢٦٣ .

(٤٠) ينظر : مجمع البيان ، ٢ : ١٨٦ .

(٤١) البيان في غريب إعراب القرآن ، ١ : ٢٦٧ .

(٤٢) معالم التنزيل : ٣٣٧ .

(٤٣) التبيان في إعراب القرآن ، ١ : ٣٨٨ .

وقال الأزهرى : (الدَّهْبُ) مذكَّرٌ ولا يجوزُ تأنيثُهُ  
إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ جَمْعًا لِدَهَبَةٍ وَالجَمْعُ (أَذْهَابٌ) مَثَلُ  
سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ «(٤٩)» .  
وَالْفِضَّةُ : مَعْرُوفَةٌ «(٥٠)» .

اختلفت آراء المفسرين في سبب أفراد الضمير  
في لفظ ( ولا ينفقونها ) مع إنَّ المتقدِّم اسمان  
معطوفان بالواو .

قال الفرَّاءُ : « ولم يقل ينفقونها » . فإنَّ شئتَ  
وجَّهتَ الذهبَ والفضةَ إلى كنوز فكان توحيدها  
من ذلك . وإنَّ شئتَ اكتفيتَ بذكر أحدهما من  
صاحبه ، واستشهد الفرَّاءُ بأية التجارة وآية  
الخطيئة وقول الشاعر في مثل ذلك :

**نحن بما عندنا وأنت بما**

**عندك راضٍ والرأي مختلفٌ** «(٥١)» .

والتقدير : نحن بما عندنا راضون ، حذف راضون  
لدلالة الثاني عليه .

واستشهد بقول الشاعر :

**إني ضمنت لمن أتاني ماجني**

**وأبي وكان وكنت غير غدورٍ** «(٥٢)» .

ولم يقل غدورين ؛ وذلك لا تفاق المعنى يُكتفى  
بذكر الواحد «(٥٣)» .

قال الأَخْفَشُ : « جعل الكلام على الآخر » «(٥٤)» ،  
واستشهد بقول الشاعر

**نحن بما عندنا وأنت بما .**

ويرى الرَّجَّاجُ أنَّ عدم قوله ( ولا ينفقونها )

في الموضوع بقوله :

- قيل تعود على أحد الشئيين المدلول عليه بأو .  
- وقيل تعود على الكسب المدلول عليه بقوله  
« ومن يكسب » .

- وقيل تعود على المكسوب ، والفعل يدلُّ عليه «(٤٤)» .  
وجمع أبو حيان أقوال السابقين له من المفسرين  
فذكر رأيه ومن ثمَّ ذكر أقوالهم ، قال : « الضمير  
في « به » عائدٌ على الإثم ، والمعطوف بأو يجوز أن  
يعود الضمير على المعطوف عليه » «(٤٥)» .

وقيل : يعود على الكسب المفهوم من يكسب .

وقيل على المكسوب .

وقيل على أحد المذكورين الدال عليه العطف بأو .  
وقيل بوجود محذوف وتقديره : ومن يكسب  
خطيئة ثم يرمي به بريئًا أو إثمًا ثم يرمي به  
بريئًا «(٤٦)» .

وقد وافق السمين الحلبي أبا حيان في كلِّ ما  
ذكره من أقوال «(٤٧)» .

والباحث يرجح الاكتفاء بأحدهما عن الآخر  
لوجود الملازمة بين الاسمين ، وهذه ظاهرة  
موجودة في اللسان العربي القديم على ما ذكرت  
سابقا . ويجوز أن يعود الضمير على الثاني ؛ لأنَّ  
« أو » يقتضي الأفراد .

الموضع الرابع : { ... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ  
وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ  
أَلِيمٍ } «(٤٨)» .

الذَّهْبُ : « معروف ويؤنثُ فيقالُ هي : (الذَّهْبُ)  
الحمراء ، ويُقالُ إنَّ التَّأْنِيثَ لُغَةٌ أَهْلِ الْحِجَازِ وَبِهَا  
نَزَلَ الْقُرْآنُ ، وَقَدْ يُؤنثُ بِالْهَاءِ فيقالُ : (ذَهَبَةٌ) »

«(٤٤)» ينظر : التبيان في إعراب القرآن ، ١ : ٣٨٨ .

«(٤٥)» البحر المحيط ، ٣ : ٣٦١ .

«(٤٦)» ينظر : البحر المحيط ، ٣ : ٣٦١ .

«(٤٧)» ينظر : الدر المنصون ، ٤ : ٨٨ .

«(٤٨)» سورة التوبة : ٣٤ .

«(٤٩)» المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : أحمد بن

محمد الفيومي (ت : ٧٧٠هـ) : ٢٣٠ .

«(٥٠)» مختار الصحاح : ٣٤٧ .

«(٥١)» البيت استشهد به الواحدي في البسيط ٢ : ٤٥٤ .

«(٥٢)» هذا البيت لا يوجد في ديوانه ، ورد في شرح أبيات  
سيبويه ١ : ٦٢٦ وكتاب سيبويه ١ : ٧٦ ولسان العرب

مادة ( قعد ) ٦ : ٣٦٨٨ و البسيط للواحدى ١٠ : ٤٠٠ .

«(٥٣)» ينظر : معاني القرآن ، ١ : ٤٣٤ .

«(٥٤)» معاني القرآن : ٤٦٥ .

في سبيل الله فإنَّما جاز ذلك لأنَّ المعنى يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون الكنوز في سبيل الله . ويجوز أن يكون محمولاً على الأموال ، فيكون ولا ينفقونها : أي : لا ينفقون الأموال .

ويجوز أن يكون ولا ينفقونها ، ولا ينفقون الفضة ، وحذف الذهب ؛ لأنَّه داخل في الفضة (٥٥) . وأعاد النحاس توجيهات الرِّجَّاج في الآية ، ولم يضيف إليها شيئاً (٥٦) .

ووقف الماوردي على الآية وذكر لها جوابين : أحدهما : أنَّ الكناية راجعة إلى الكنوز ، وتقديره : ولا ينفقون الكنوز في سبيل الله .

الثاني : أنَّه قال : ذلك اكتفاء بذكر أحدهما عن الآخر لدلالة الكلام على اشتراكهما ، واستشهد بأية التجارة وبيت حسان بن ثابت المتضمن لهذه الظاهرة (٥٧) .

وجاءت توجيهات الطوسي لهذه المسألة موافقة مع ما ذكره الماوردي شرحاً واستشهاداً (٥٨) .

وعلى الحسين بن مسعود البغوي سبب أفراد الضمير بقوله : « قيل : لم قال : لا ينفقونها ولم يقل ولا ينفقونها ، وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً ؟

قيل : أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة . وقيل : ردَّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنَّها أعمُّ ، واستشهد بأيتي الصبر والتجارة (٥٩) .

ولم يكن توجيه الزمخشري ببعيد عمَّا ذكره من سبقه من المفسرين فقد صاغ التعليل بأسلوبه الخاص قائلاً : « فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيئان ؟

قلت : نهابا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم . وقيل ذهب به إلى الكنوز ، وقيل إلى الأموال ، وقيل : لا ينفقونها والذهب » (٦٠) .

أي يشير الزمخشري إلى أنَّ الاسم الثاني محذوف على نية التقدير .

وذكر الطبرسي أربعة أقوال في المسألة على وفق الآتي :

- رجع الضمير إلى ما دلَّ عليه الكلام .

- رجع على الجنس (الأموال) .

- الذهب مؤنث ولا يفصله عن مفرده إلا الهاء (ة) ، يُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ ، ثمَّ لما اجتمعا في التأنيث وكان كلُّ واحدٍ يؤخذ عن صاحبه في الزكاة على قول جمهور العلماء جعلهما كالشيء الواحد ، وردَّ الضمير إليهما بلفظ التأنيث .

- اكتفى بأحدهما عن الآخر للإيجاز ، وردَّ الضمير إلى الفضة ؛ لأنَّها أقرب إليه ، واستشهد بقول حسان في السابق الذكر (٦١) .

وقد أكد أبو البركات الأنباري وجود ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما بقوله : «إنَّما قالَ ينفقونها ؛ لأنَّ عادتهم - أي: العرب - أن يخبروا عن أحد الشئيين وهو لهما» (٦٢) ، واستدل بآيات قرآنية .

وتابع العكبري ما ذهب إليه الزمخشري من الوجوه التي ذكرها المفسرون السابقون له ، وأكد أنَّ الضمير عاد على المعنى ، أو على الفضة ؛ لأنَّها أقرب (٦٣) . وتابع عبدالله بن أحمد النسفي ما ذهب إليه الزمخشري والعكبري (٦٤) .

(٦٠) الكشاف : ٥٠٤ .

(٦١) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، ٥ : ٤٦ .

(٦٢) البيان في غريب إعراب القرآن ، ١ : ٣٩٧ و ٣٩٨ .

(٦٣) ينظر : التبيان ، ٢ : ٦٤١ .

(٦٤) ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٤٣٤ .

(٥٥) ينظر : معاني القرآن : ١ : ٧١٠ و ٧١١ .

(٥٦) إعراب القرآن : ٣٨٧ .

(٥٧) ينظر : النكت والعيون ، ٢ : ٣٥٩ .

(٥٨) ينظر : التبيان في تفسير القرآن ، ٥ : ١٩٠ .

(٥٩) ينظر : معالم التنزيل : ٥٥٥ .

وقد فصل أبو حيان كل ما قيل في الآية من أقوال وجعلها في ثمانية أقوال<sup>(٦٥)</sup>:

- الضمير عائد على الذهب ؛ لأنَّ تأنيته أشهر .
- أو يعود على الفضة وحذف المعطوف في هذين القولين .
- أو عليهما باعتبار أنَّ تحتتهما أنواعاً .
- أو على المكنوزات لدلالة يكثران .
- أو على الأموال .
- أو على النفقة .
- أو على الزكاة .
- أو عاد على أحدهما .

وعلى الرغم من مقبولية هذه الآراء إلا إنَّ الكناية عن أحدهما تبقى هي الظاهرة المميزة لهذا السياق من التعبير بوجود الواو العاطفة أو بوجود أو بين الاسمين .

وأكد السمين الحلبي هذه الظاهرة بقوله : «(ولا ينفقونها) تقدم شيئان وعاد الضمير على مفرد»<sup>(٦٦)</sup>. وعلل بجميع ما علل به أبو حيان من آراء.

**الموضع الخامس :** {...وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}<sup>(٦٧)</sup>.

علل الزجاج سبب ورود الاسمين والكناية عن أحدهما بقوله : «ولم يقل آيتين ، لأنَّ المعني فيهما آية واحدة ، ولو قال آيتين لجاز ؛ لأنَّهما قد كان في كل واحد منهما ما لم يكن في ذكر ولا أنثى ، من أنَّ مريم وُلدت من غير فعل ، ولأنَّ عيسى روح الله ألقاه إلى مريم ولم يكن هذا في ولد قط »<sup>(٦٨)</sup>.

ووجدت الماوردي عند تفسيره الآية يُشير إلى أنَّ

الآية تعود إليهما<sup>(٦٩)</sup>.

وذكر البغوي الحسين بن مسعود قولين في توجيه الدلالة :

- قيل : معناه جعلنا شأنهما آية .
  - وقيل : معناه جعلنا كل واحدٍ منهما آية .
- وفسر الزمخشري الآية عن طريق أسلوب الفنقلة (إن قلت قلت ) ، قال : «فإن قلت : لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه ؟

قلت : نعم ؛ لأنَّ مريم وُلدت من غير ميسس ، وعيسى روح من الله ألقى إليها ، وقد تكلم في المهد ، وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر ، فكان آية من غير وجه ، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير : (وجعلنا ابن مريم) آية ، (وأمه آية) ثم حُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها»<sup>(٧٠)</sup>.

يقول الطبرسي : «آية عيسى أنَّه خُلِق من غير ذكر ، وآية مريم أنَّها حُمِلت من غير ذكر»<sup>(٧١)</sup>.

وتابع النسفي والبيضاوي والمشهدي ما ذكره الزمخشري من توجيه دلالي على وجه المطابقة<sup>(٧٢)</sup>.

**الموضع السادس :** {يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُم لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}<sup>(٧٣)</sup>.

بيِّن الفراء دلالة الإفراد في يرضوه بقوله : «وحدَّ (يرضوه) ولم يقل : يرضوهما ؛ لأنَّ المعنى - والله العالم - بمنزلة قولك : ما شاء الله وشئتُ ؛ إنَّما يقصد بالمشيئة قصدُ الثاني ، وقوله ( ما شاء الله) تعظيم لله مقدّم قبل الأفعالي ؛ كما تقول لعبدك : قد أعتقك الله وأعتقتك . وإن شئت أردت :

(٦٩) نكت العيون ، ٤ : ٥٥ .

(٧٠) الكشف : ٨٦٧ .

(٧١) مجمع البيان ، ٧ : ١٩٢ .

(٧٢) ينظر : مدارك التنزيل : ٧٥٨ ، وينظر : أنوار

التنزيل وأسرار التأويل : ٦٩٢ ، وكنز الدقائق ، ٩ : ١٦٦ .

(٧٣) التوبة : ٦٢ .

(٦٥) ينظر : البحر المحيط ، ٥ : ٣٩ .

(٦٦) الدر المصون ، ٦ : ٤٢ و ٤٣ .

(٦٧) سورة المؤمنون : ٥٠ .

(٦٨) معاني القرآن وإعرابه ، ٢ : ١١٤٨ .

يرضوهما فاكتفيت بواحد<sup>(٧٤)</sup>. واستشهد بقول الشاعر «.

**نحن بما عندنا وأنت بما عن**

**دك راضٍ والرأي مختلفٌ .**

ولم يقل : راضون<sup>(٧٥)</sup>.

يقول الزجاج : « ولم يقل يرضوهما ؛ لأنَّ المعنى يَدُلُّ عليه فَحُذِفَ استخفافاً ، المعنى : والله أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ، ورسوله أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ »<sup>(٧٦)</sup>. واستشهد بالبيت الشعري نفسه الذي استشهد به الفراء .

ذكر النحاس رأياً سيبويه والمبرد في في علَّة الأفراد ، فسيبويه يرى التقدير : والله أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ورسولُهُ { أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ } ثُمَّ حُذِفَ . ونقل عن المبرد أَنَّ الكلامَ فيه حذف ، والتقدير : والله أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ، ورسوله على التقديم والتأخير .

قال النحاس « قول سيبويه أولها ؛ لأنَّه قد صحَّ عن النبي (ص) النهي عن أن يقال ، ما شاء الله وشئت ولا يُقدَّر في شيء تقديم ولا تأخير معناه صحيح<sup>(٧٧)</sup>.

**وذكر الطوسي في توجيه الآية قولين :**

أحدهما : لما كان رضى رسول الله رضى الله ، ترك ذكره ؛ لأنَّه دال عليه ، والتقدير : والله أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ورسولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ .

الثاني : أنَّه لا يذكر على طريق المجرى مع غيره تعظيماً له بإفراد الذكر المعظم بما لا يجوز إلا له<sup>(٧٨)</sup>.

وتابع الواحدي ما قاله الزجاج من تعليل<sup>(٧٩)</sup>. وتابع الزمخشري ما ذهب إليه الطوسي من تعليل<sup>(٨٠)</sup>. وتابع الطبرسي ما قاله الزجاج في الآية من دون زيادة<sup>(٨١)</sup>.

قال العكبري وهو يوجِّه إعراب الآية الكريمة : « أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ - خبر عن الاسمين ؛ لأنَّ أمر الرسولِ تابعٌ لأمرِ الله تعالى ، ولأنَّ الرسولَ قائمٌ مقامِ الله ، بدليل قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }<sup>(٨٢)</sup>.

وقيل : أفرد الضمير وهو في موضع التثنية<sup>(٨٣)</sup>. ومهما تعددت التوجيهات الدلالية والتعبيرات التعليلية في الآية يبقى مفهوم الأفراد في الكناية هو واقع حال في هذه الآية وما يتلوها من آياتٍ أُخر .

وتابع النسفي ما ذهب إليه الطوسي والزمخشري<sup>(٨٤)</sup>.

و ذكر أبو حيان ما قيل في الآية من توجيهات ، وردَّ على من يوجه العائد في ضوء مذهب سيبويه الذي يرى أنَّهما جملتان حُذِفَت الأولى لدلالة الثانية عليها<sup>(٨٥)</sup>.

وافق البيضاوي والمشهدي ما قاله الطوسي والزمخشري والنسفي في الآية<sup>(٨٦)</sup>.

(٧٩) ينظر : البسيط ، ١٠ : ٥٢٨ .

(٨٠) ينظر : الكشاف : ٥١٤ .

(٨١) ينظر : مجمع البيان ، ٥ : ٨٠ .

(٨٢) سورة الفتح : ١٠ .

(٨٣) التبيان في إعراب غريب القرآن ، ٢ : ٦٤٩ .

(٨٤) ينظر : مدارك التنزيل : ٤٤٢ .

(٨٥) ينظر : البحر المحيط ، ٥ : ٦٥ .

(٨٦) ينظر : أنوار التنزيل : ٤٢٧ ، وينظر : كنز القائق ،

٥ : ٤٩٤ .

(٧٤) معاني القرآن ، ١ : ٤٤٥ .

(٧٥) معاني القرآن ، ١ : ٤٤٥ .

(٧٦) ينظر : معاني القرآن ، ١ : ٧٢٣ .

(٧٧) إعراب القرآن : ٣٩٣ .

(٧٨) ينظر : التبيان ، ٥ : ٢٢٤ و ٢٢٥ .

ونقل الثعالبي رأي سيبويه في المسألة ، وبعدها قال : وقيل : الضمير في «يرضوه» عائد على المذكور (٨٧).

الموضع السابع : {وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٨٨).

هل نسكن في الليل أم في النهار ، وهل نبتغي فضل الليل أم فضل النهار أو كليهما ؟ يقول الفراء : «إن شئت جعلت الهاء راجعة على الليل خاصة وأضمرت للابتغاء هاء أخرى تكون للنهار ، فذلك جائز ، وإن شئت جعلت الليل والنهار كالفعلين ظلّمة ونور ، فرجعت الهاء في (فيه) عليهما جميعاً ، إقبالك وإدبارك يؤذيني ؛ لأنّهما فعلٌ والفعل يردُّ كثيره وتثنيته إلى التوحيد ، فيكون صواباً» (٨٩).

يرى الزجاج أنّ المعنى : جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً ، لتسكنوا بالليل وتبتغوا من فضل الله بالنهار .

وجائز أن تسكنوا فيهما ، وأن تبتغوا من فضل الله فيهما ، فيكون المعنى : جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله (٩٠).

يرى الطوسي «أنّ الهاء في قوله ( لتسكنوا فيه ) تحتل وجهين :

**أحدهما** : أن يعود إلى الليل خاصة ، ويضم مع الابتغاء هاء أخرى .

**الثاني** : أن يعود الضمير إليهما إلا أنّه وحّد ؛ لأنّه يجري مجرى المصدر في قولهم : إقبالك وإدبارك يؤذيني ، والأوّل أصحّ» (٩١).

(٨٧) ينظر : الجواهر الحسان ، ٣ : ١٩٢ .

(٨٨) سورة القصص : ٧٣ .

(٨٩) معاني القرآن ، ٢ : ٣١٠ .

(٩٠) ينظر : إعراب القرآن ، ٢ : ١٢٧٠ .

(٩١) ينظر : إعراب القرآن ، ٢ : ١٢٧٠ .

نقل الواحدي عن المبرد أنّه قال : «السكون إنّما هو في الليل ، والابتغاء من فضله يكون في النهار ، ولكن لما عطف أحدهما على الآخر ، أخرج مخرج الواحد الجامع للشئئين» (٩٢).

وحدد الطبرسي السكون في الليل ، والابتغاء في النهار (٩٣).

وعلى أبو البركات الأنباري تحديد السكون في الليل والابتغاء في النهار بقوله : ( ولم يقل لتسكنوا فيهما ؛ لأنّ السكون إنّما يكون بالليل لا بالنهار ، والابتغاء للرزق إنّما يكون بالنهار في العرف والعادة ) (٩٤).

وافق العكبري ما ذهب إليه الطبرسي والأنباري وعلل ذلك بقوله : «ولكن خُرج اعتماداً على فهم المعنى» (٩٥).

ويرى عبدالله بن أحمد النسفي أنّ هذا الأسلوب من باب اللف والنشر (٩٦).

ذكر أبو حيان الأندلسي أنّ الضمير في (فيه) عائد على الليل ، وفي فضله ، يجوز أن يكون عائداً على الله ، والتقدير : من فضله : أي من فضل الله فيه ، أي في النهار وحُذِفَ لدلالة المعنى ودلالة لفظ ( فيه ) السابق . وهذا التوجيه انفرد به أبو حيان ولم يذكره من سبقه من المفسرين . وأجاز أن يعود الضمير على النهار إضافة مجازية (٩٧).

وقد وافق السمين الحلبي ما قاله النسفي من

(٩٢) البسيط ، ١٧ : ٤٤٤ .

(٩٣) ينظر : مجمع البيان ، ٧ : ٤٥٥ .

(٩٤) التبيان في تفسير القرآن ، ٨ : ١٣٣ .

(٩٥) التبيان في إعراب القرآن ، ٢ : ١٠٢٥ .

(٩٦) ينظر : مدارك التنزيل : ٨٧٨ . اللف والنشر : "

ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكلّ واحد من غير تعيين ثقة بأنّ السامع يردّه إليه " ، مفتاح

العلوم : ٢٠٠ .

(٩٧) ينظر : البحر المحيط ، ٧ : ١٢٥ .

أَنَّ هذا الأسلوب من باب اللف والنشر<sup>(٩٨)</sup>، ومنه قول الشاعر :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا

لدى وكرها العُنَاب والحشف البالي<sup>(٩٩)</sup>.  
الموضع الثامن : { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا  
انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }<sup>(١٠٠)</sup>.

جاء السياق القرآني بصيغة إفراد الضمير (إليها)، ولم يقل إليهما، وهذا ما جعل المفسرين يجهدون تفكيرهم ويعملون أدواتهم البحثية في اكتشاف علل التعبير القرآني في هذا المورد، وقد اختلفت توجيهاتهم باختلاف مناهجهم واتجاهاتهم وعلى النحو الآتي :

١- جعل الهاء للتجارة دون اللهو . ولو قيل : انفضوا إليه ، يريد اللهو كان صوابًا ، كما قال : { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }<sup>(١٠١)</sup>.

ولو قيل : وانفضوا إليهما ، صوابًا ، وأجود من ذلك في العربية أَنَّ تجعل الراجح من الذكر للآخر من الاسمين وما بعد ذا فهو جائز .

وإنما اختير في انفضوا إليها ...، لأنَّ التجارة كانت أهم إليهم ، وهم بها أسرُّ منهم بضرب الطبل؛ لأنَّ الطبل إنما دلَّ عليها ، فالمعنى كُلُّ لها<sup>(١٠٢)</sup>.

٢- يجوز من الكلام ، وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليه ، انفضوا إليها ، وانفضوا إليهما ، فحذف خبر أحدهما ؛ لأنَّ الثاني يدلُّ على الخبر المحذوف ، والمعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها

(٩٨) ينظر : الدرُّ المصون ، ٨ : ٦٩٢ .

(٩٩) ديوان امرئ القيس : ٣٨ .

(١٠٠) سورة الجمعة : ١١ .

(١٠١) سورة الجمعة : ١١ .

(١٠٢) معاني القرآن للفراء ، ٣ : ١٥٧ .

أو لهوًا انفضوا إليه<sup>(١٠٣)</sup>.

٣- ويرى النحاس أَنَّ ما ذكره الفراء وغيره كُلُّه جائز أن يعود على الأوَّل أو على الثاني أو عليهما ، واستشهد بأية الخطيئة<sup>(١٠٤)</sup>.

٤- « ولم يقل إليهما ؛ لأنَّ غالب انفضاضهم كان للتجارة دون اللهو »<sup>(١٠٥)</sup>.

٥- يقول أبو البركات الأنباري : « كُنِيَ عن أحدهما دون الآخر للعلم بأنَّه داخل في حكمه »<sup>(١٠٦)</sup>.

٦- علل الطوسي صيغة الإفراد بقوله : « وإنما قيل : (إليها) ؛ لأنها كانت أهم إليهم »<sup>(١٠٧)</sup>، واستشهد بقول الفراء .

٧- نقل الواحدي النيسابوري رأي المبرد من أَنَّ : انفضوا إليها ، الضمير للتجارة )<sup>(١٠٨)</sup>، ثم قال : « من كلام العرب المستقيم أن يذكروا الشئيين اللذين يرجعان إلى معنى مما يطلب فيهما فيردُّوا الخبر إلى أحدهما استغناء واختصارًا »<sup>(١٠٩)</sup>.

٨- وممن علَّل رد الكناية إلى التجارة لأنها أهم ، البغوي ، والطبرسي ، والعكبري ، والبيضاوي<sup>(١١٠)</sup>.

٩- وورد في تفسير الزمخشري الآتي : « فَإِنْ قُلْتَ : كيف قال : (إليها) وقد ذكر شيئين ؟ قلتُ تقديره : إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوًا انفضوا إليه ، فحذف إحداهما لدلالة المذكور عليه »<sup>(١١١)</sup>. ووافق النسفي قول الزمخشري وتوجيهه للآية<sup>(١١٢)</sup>.

(١٠٣) معاني القرآن وإعرابه ، ٢ : ١٦٧٩ .

(١٠٤) ينظر : اعراب القرآن : ٩٧١ .

(١٠٥) نكت العيون ، ٦ : ١٢ .

(١٠٦) التبيان في غريب إعراب القرآن ، ٢ : ٤٣٩ .

(١٠٧) التبيان ، ١٠ : ١٠ .

(١٠٨) البسيط ، ٢١ : ٤٦١ .

(١٠٩) البسيط ، ٢١ : ٤٦١ .

(١١٠) ينظر : معالم التنزيل : ١٣١٥ ، ومجمع البيان ،

١٠ : ١٥ ، والتبيان ، ٢ : ١٢٢٣ ، وأنوار التنزيل : ١٠٣٣ .

(١١١) الكشاف : ١٣٨٧ ، وينظر : مدارك التنزيل : ١٢٤١ .

(١١٢) البسيط ، ٢١ : ٤٦١ .

١٠- ووافق السمين الحلبي ممن سبقه في أن الضمير يعود على التجارة دون الله؛ لأنها الأهم في السبب فهي سبب الله . وقال في الذين قالوا ( ولم يقل إليهما ) : «إن جوابهم فيه نظر لا يخفى، لأن العطف بـ (أو)

لا يُنتى معه الضمير ، ولا الخبر ولا الحال ولا الوصف ؛ لأنها لأحد الشئيين «إذن حسم أمره من أن المانع من التثنية أمرٌ صناعيٌّ وهو العطف بـ (أو)»<sup>(١١٣)</sup>.

**المبحث الثاني:** ظاهرة ذكر الاسمين والكناية عن أحدهما في الشعر العربي :

لم يقتصر استعمال الظاهرة محل البحث على الخطاب القرآني ، فهي مستعملة في الأدب العربي قبل الإسلام وبعده ولاسيما في ميدان الشعر العربي ، وهذه مجموعة من النصوص تؤكد صحة ما قلناه .

قال الشاعر جبران العود الأموي :

**عقابٌ عقنباة كأنٌ وظيفها**

**وخرطومها الأعلى بنان مَلوْحٌ**<sup>(١١٤)</sup>.

ذكر الشاعر اسمين ( الوظيفة والخرطوم ) وأفرد الكناية بقوله ( بنان ) ولم يقل ( بنانان ) .

- قال الشاعر :

**أما الوسامةُ ، أو حُسن النساءِ ، فقد**

**أتيت منهُ ، أو أنَّ العقلَ محتتك**<sup>(١١٥)</sup>.

ذكر الوسامة وحسن النساء وتحدث عن أحدهما وهو : ( منه ) ولم يقل منهما ، لدلالة الثاني على الأول .

وقال الشاعر عبدالله بن جحش :

(١١٣) الدر المصون ، ١٠ : ٣٣٢ و ٣٣٣ .

(١١٤) البيت لـ " جبران العود " في ديوانه : ٤ ، وفي لسان العرب مادة " لوح " ومادة " عقنب " .

(١١٥) ذكر الطبرسي البيت في تفسيره ولم ينسبه إلى صاحبه ، ولم أعثر عليه . مجمع البيان ، الطبرسي ، ١ ، ١٩٥ .

**ولو حَلَفْتَ بين الصِّفا أمَّ عامرٍ**  
**وَمَرَوْتَهَا بالله برَّت يمينها**<sup>(١١٦)</sup>

أفرد الضمير بعد ذكر الاسمين : الصفا والمروة .  
- قال الشاعر :

**رمانى بأمرٍ كنتُ منه ووالدي**

**بريئاً ومن طول الطوي رمانى**<sup>(١١٧)</sup>.

أفرد الكناية بقوله ( بريئاً ) ولم يقل ( بريئين ) على الرغم من أنه مسبوق بذكر اسمين هما تاء الفاعل ووالده . يقول : قذفني بأمر أنا بريءٌ منه ووالدي بريءٌ منه أيضاً ، فالخبر « بريئاً » له ولوالده أو لأحدهما ، والآخر محذوف خبره . يقول سيبويه : « وحق الكلام أن يقول : بريئين ، فهذه الأبيات أشد مما ذكر ؛ وذلك أنه حذف خبر الاسم الذي لا بد له منه اكتفاءً بخبر الاسم الأخير »<sup>(١١٨)</sup>.

- قال الفرزدق :

**إنني ضمننتُ لمن أتاني ماجني**

**وأبي وكان وكننتُ غير غدور**<sup>(١١٩)</sup>

ولم يقل غدورين ، وذلك لاتفاق المعنى يكتفي بذكر الواحد .

- قال الشاعر :

**نحن بما عندنا وأنت بما**

**عندك راضٍ والرأي مختلف**<sup>(١٢٠)</sup>

والتقدير : نحن بما عندنا راضون ... والرأيان مختلفان ، فذكر الاسمين وكنى عنهما بالإفراد .

قال الأصبط بن قريع السعدي :

(١١٦) البيت لـ : عبدالله بن جحش ، مثبت في شرح التسهيل لابن مالك ١ : ١٥٨ ، وينظر : الدر المصون ٦ : ٤٢ يوجد توجيه نحوي .

(١١٧) البيت لابن أحرر ، أورده الطوسي في التبيان ١ ، ٢٦٧ . وهو عمر بن أحرر بن العمرد الباهلي .

(١١٨) ينظر : الكتاب لسيبويه ، ١ : ٧٥ ، وشرح كتاب سيبويه للسرياني ، ٣ : ١٦٩ .

(١١٩) هذا البيت لا يوجد في ديوانه ، ورد في شرح أبيات سيبويه ١ : ٦٢٦ وكتاب سيبويه ١ : ٧٦ ولسان العرب مادة ( قعد ) ٦ : ٣٦٨٨ و البسيط للواحي ١٠ : ٤٠٠ .

(١٢٠) البيت استشهد به الواحي في البسيط ٢ : ٤٥٤ . البيت من المنسرح .

## نتائج البحث

بعد الانتهاء من البحث في الموضوع محل الدراسة توصلت إلى النتائج الآتية :

١- وجود أسلوب تركيبى في اللسان العربي على مستوى الخطاب الدينى والأدبى يذكر اسمين ومن ثم يخبر المتكلم عن أحدهما دون الآخر .

٢- هذا الأسلوب بعد تفصيه في القرآن والشعر ممكن عدّه ظاهرة لسانية عربية لا يمكن تجاهلها في البحث الدلالي .

٣- اقتصر الفاصل بين الاسمين على حرفين فقط هما : حرف (الواو ) وحرف (أو) . ولا وجود للأحرف الأخرى .

٤- تباينت العائدية على الاسمين المذكورين قبلها ، فأحياناً تعود الكناية على أول الاسمين ، وفي موارد تعود على ثانيهما ، وأحياناً تعود عليهما معاً .

٥- تعددت التوجيهات في تحليل هذه الظاهرة وبيان سبب عود الكناية أو الإخبار عن اسم دون الآخر بالآتي :

- لأن أحدهما جزء من الآخر .  
- هناك من يرى أن الاسم المذكور ينماز بأهمية أكبر من الاسم الثاني .

- يرى بعض الباحثين أن سبب الاكتفاء بذكر اسم واحد لا على التعيين ، يعود إلى كونهما يشتركان في حكم واحد .

## التوصيات

- يرى الباحث أن هذه الظاهرة غير مسبوقه بدراسة أكاديمية مستقلة ، وعليه فالباب مفتوح أمام الدارسين لتقصي هذه الظاهرة في التراث العربى القديم ومتابعتها في الاستعمال المعاصر .

- الموضوع صالح لدراسة ماجستير أو دكتوراه وتكون موارد البحث من التراث النبوي الشريف .

(١٢٧) خزانة الأدب ، ٥ : ١٩٧ .

والمسيء والصبح لا فلاح معه ... .. (١٢١) ...  
الشاهد قوله : « معه » والمراد « معهما » .

- قال حسان بن ثابت :

**إنَّ شَرَحَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسَّ**

**وَدَ مَا لَمْ يُعَاصِ كَانَ جَنُونًا** (١٢٢)

لم يقل الشاعر « يعاصيا » على الرغم من ذكره اسمين قبل الفعل .

- قال الشاعر:

**فَمَنْ يَكُ أَمْسَى فِي الْمَدِينَةِ رَحْلُهُ**

**فإِنِّي وَقِيَارَ بَهَا لَغَرِيبُ** (١٢٣)

والتقدير : لغريبان ؛ لكنّه ذكر الاسمين وأخبر عن أحدهما . يقول سيبويه : « فجاء بخبر أحدهما » (١٢٤) .

- قال الشاعر سلمى بن ربيعة :

**فَكَأَنَّ فِي الْعَيْنِينَ حَبَّ قَرْنُفُلٍ**

**أَوْ سُنْبُلٍ كُحِلَّتْ بِهِ فَاثْنَلَّتْ** (١٢٥)

والتقدير : كحلنا . فهو أخبر عن إحدى العينين وكان ينبغي أن يقول « كحلنا » . قال المرزوقي : « ساغ ذلك لما في العلم من أن حالتيهما لا تفترقان » (١٢٦) . وقال البغدادي : « كان الظاهر أن يقول : كحلنا ، فأفرد لأنهما لا يفترقان » (١٢٧) .

(١٢١) البيت ذكره الواحدى في البسيط ٢ : ٤٥٣ .

(١٢٢) ديوان حسان ، ١ : ٢٣٦ ، وينظر : مجاز القرآن ١ : ٢٥٨ ، ولسان العرب ٢ : ٢٠٧ .

(١٢٣) تفسير الماوردي ١ : ١١٦ . ليس للبيت قائل معروف ، وقيل :

هذا البيت لضائب بن الحارث البرجمي ، من أبيات قالها وهو محبوس في سجن المدينة - زمن عثمان بن عفان ، رضي الله عنه - لهجاء قاله في خصومه ... ومطلع الأبيات : الشاهد : قوله : لغريب ، خبر إن ، وخبر : قيار ، محذوف . والتقدير : فإنني لغريب بها ، وقيار كذلك . [ سيبويه ج ١ / ٧٥ ، والخزانة ج ١٠ / ٣١٢ ] .

(١٢٤) ينظر : الكتاب لسبويه ، ١ : ٧٥ ، وشرح كتاب سبويه للسرافي ، ٣ : ١٦٩ .

(١٢٥) البيت للشاعر سلمى بن ربيعة على ما ذكر المرزوقي والبغدادي .

(١٢٦) الحماسة ، ١ : ٥٤٧ .

المصادر والمراجع				
ت	اسم الكتاب	المؤلف	المحقق	التفاصيل
١-	إعراب القرآن	لأبي جعفر النحاس (ت: ٣٨٨هـ)	تح: الدكتور زهير غازي زاهد	عالم الكتب، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٨ م.
٢-	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي (ت: ٧٤٥هـ)	تح: محمد محيي الدين الأصفر	دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ٢٠١٣ م.
٣-	البحر المحيط	لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)	عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض	دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، ٢٠١٠ م.
٤-	البيان في غريب إعراب القرآن	لأبي البركات بن الأنباري (ت: ٥٧٧هـ)	طه عبد الحميد طه ، ومصطفى السقا	الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، د.ت.
٥-	التبيان في إعراب القرآن	لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (ت: ٦١٦هـ)	علي محمد البجاوي	دار الجيل، ط ٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.
٦-	التبيان في تفسير القرآن	محمد بن الحسن الطوسي	أحمد حبيب العاملي	الأميرة، ط ١، بيروت، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م.
٧-	التسهيل لعلوم التنزيل	محمد بن أحمد الكلبلي الغرناطي	تح: الدكتور: محمد بن سيدي محمد مولاي	دار الضياء، الطبعة الأولى، الكويت، ٢٠١٣ م.
٨-	التفسير البسيط	لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)	محمد بن صالح الفوزان	جامعة محمد بن سعود، ط ١، ١٤٣٠هـ.
٩-	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	عبدالرحمن بن محمد الثعالبي المالكي (ت: ٨٧٥هـ)	علي محمد معوض عادل أحمد عبدالموجود	دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.
١٠-	خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب	عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ)	عبدالسلام محمد هارون	مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٤ م.
١١-	الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون	السَّمِين الحلبي أحمد بن يوسف (ت: ٧٥٦هـ)	أحمد محمد الخراط	دار القلم، ط ٣، دمشق، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م.
١٢-	ديوان امرئ القيس		تح: محمد أبو الفضل إبراهيم	دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٤ م.
١٣-	ديوان جرّان العود النميري			دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠ م.
١٤-	ديوان حسان بن ثابت		تح: الدكتور وليد عرفات	دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠١٢ م.

المنصورة ، ط ١ ، مصر ، ١٠٠٢ م .	محمد عبد النبي	حسن بن قاسم المرادي (ت):	شرح التسهيل	١٥-
دار هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩١ م .	تح: الدكتور عبدالرحمن السيد	لابن مالك جمال الدين الأندلسي (ت: ٢٧٦هـ)	شرح التسهيل	١٦-
دار الجبل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩١ م .	تح: أحمد أمين ، وعبدالسلام هارون	شرح أي علي المرزوقي (ت: ١٢٤هـ) .	شرح ديوان الحماسة لأبي تمام الأوسي	١٧-
شركة القدس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١١٠٢ م .	تخريج وفهرسة الدكتور عبدالمعطي أمين	لأبي سعيد السيرافي النحوي (ت: ٨٦٣هـ) .	شرح كتاب سيبويه	١٨-
عالم الكتب ، ط ٣ ، مصر ، ٢٨٩١ م .	عبدالسلام محمد هارون	لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت: ٨١هـ)	الكتاب	١٩-
دار ابن حزم ، ط ١ ، ١٤٣٣هـ = ٢١٠٢ م .	_____	لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت: ٨٣٥هـ)	الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل	٢٠-
مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، 1998 م .	فهرسة: عدنان درويش	لأبي البقاء الكفوي (ت: ٣٨٦هـ) .	الكليات	٢١-
دار الغدير ، قم ، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٢ م .	حسين دركاهي	محمد المشهدي (ت: ٢١هـ)	كنز الدقائق	٢٢-
دار صادر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٨ م .		لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ١١٧هـ)	لسان العرب	٢٣-
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دت	تعليق: الدكتور محمد فؤاد سزكين	لأبي عبيدة معمر بن المنثى التيمي (ت: ١٠١٢هـ) .	مجاز القرآن	٢٤-
مؤسسة الأعلمي ، ط ٢ ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥ م .	لجنة من العلماء	لأبي علي الفضل الحسن الطبرسي (ت: ٦هـ)	مجمع البيا في تفسير القرآن	٢٥-
دار المعرفة ، ط ٢ ، بيروت ،	عناية: عبدالمجيد طعمة	عبدالله بن أحمد النسفي (ت: ١١٧هـ)	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	٢٦-
٨٠٠٢ م .		جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)	همع الهوامع في شرح جمع الجوامع	٢٧-

٢٨-	معالم التنزيل	الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٦١٥هـ)	ادار ابن حزم ، ط ٢ ، ١٠٢ م .
٢٩-	معاني القرآن	للقرء أبي زكريا يحيى بن زياد ( ت: ٧٠٢هـ )	عالم الكتب ، ط ٢ ، بيروت ، ٨٩١ م .
٣٠-	معاني القرآن وإعرابه	للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت: ١١٢هـ)	دار الصحابة للتراث ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ = ٨٠٠٢ م
٣١-	مفتاح العلوم	لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت: ٦٢٦هـ).	مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأولى ، مصر ، ٧٣٩١ م .
٣٢-	مفردات ألفاظ القرآن	العلامة الراغب الأصفهاني (ت: ٥٢٤هـ).	دار القلم ، الطبعة السادسة ، دمشق ، ١٠٢ م .
٣٣-	النكت والعيون تفسير الماوردي	لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري (ت: ٥٤٠هـ) .	دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، د.ت .
٣٤-	همع الهوامع في شرح جمع الجوامع	جلال الدين السيوطي (ت: ١١٩هـ)	عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١ م